التصوف والإصلاح السياسي عند الشيخ أحمد السرهندي

Sufism and political reform in Sheikh Ahmed Al-Sarhandi views

إكرام الحق الأزهري* ضياء الله بن محمدجان**

ABSTRACT:
Ahmad al-Fārūqī al-Sirhindī (1564–1624) was an Indian Islamic scholar, a Hanafi jurist, and a member of the Naqshbandī Sufi order. He has been described by some followers as a Mujaddid, meaning a "reviver", for his work in rejuvenating Islam and opposing the newly made religion of Din-i Ilahi and other dissident opinions of Mughal emperor Akbar. While early South Asian scholarship credited him for contributing to conservative trends in Indian Islam, more recent works, notably by ter Haar, Friedman, and Buehler, have pointed to Sirhindi's significant contributions to Sufi epistemology and practices. Shaikh Sirhindi's teaching emphasized the inter-dependence of both the Sufi path and sharia, stating that "what is outside the path shown by the prophet is forbidden." Arthur Buehler explains that Sirhindi's concept of shariah is a multivalent and inclusive term encompassing outward acts of worship, faith, and the Sufi path. Sirhindi emphasizes Sufi initiation and practices as a necessary part of shariah, and criticizes jurists who follow only the outward aspects of the sharia. In his criticism of the superficial jurists, he states: "For a worm hidden under a rock, the sky is the bottom of the rock."

Keywords: Ahmad al-Fārūqī al-Sirhindī, Hanafi jurist, Mujaddid, Sufi path and sharia.

مما لا شك فيه أن التصوف الإسلامي كان طوال تاريخنا المضيء عنصرا من عناصر القوة الملهمة للمسلمين، وهو الروح الصانع للعزمات والإصلاح، وهو الدرع الذى يحمى أخلاقنا ويصون عقائدنا ويحول بيننا وبين التحلل والتفكك والفناء، لقد كان التصوف دائماً هو الأفق الأعلى للفكر الإسلامي والوجه الأكمل لآدابنا ومثالياتنا، والمعراج الذي صعد عليه إلى سيادتنا وقوتنا، التصوف في الإسلام حين يكون التزاماً حقيقياً بالكتاب و السنة هو الكمال في الإيمان، والكمال في كل شأن من شئون الحياة، إنه خلاصة زكية لكل دعوة ربانية، إنه الصدق والأمانة والوفاء وإيثار النجدة والكرم ونصرة الضعيف وإغاثة الملهوف، والتعاون على البر والتقوى، والتواصي بالحق والصبر، والتسابق إلى فعل الخيرات أياً كانت سبله ووِجهاته، إنه النضال لعزة الوطن، ونصرة العقيدة وسيادة الإيمان، إنه الصيحة الرهيبة في وجه الطغيان والاستبداد والعدوان، وهو الذي صَمَد في وجه التيارات الإلحادية والانحلالية، وهو الذي وقف حصناً شامخاً يدفع عن الجماهير الإسلامية وثنية التتار، وعصبية الصليبيين وفتكات الاستعمار، كما أن هزيمة الحملة الفرنسية على مصر كان على يد أبناء الصوفية وشيوخها، والمتوكل العباسي حينما

* Visiting Professor, Faculty of Usool ud Din, International Islamic University, Islamabad. Email: drikramulhaq@gmail.com
**Ph.D Scholar Department of Islamic Studies, Abdul Wali Khan University, Mardan

ضاقت به الأرض وعصفت به الحروب، نادى أصحاب الفتوة والصوفية، فهرعوا إليه من كل مكان، فكان جيشه الكبير الذي حمى الإسلام وَصَان حُدُودَه، وهكذا تعددت مناهج الصوفية حسب الزمان والمكان محافظين على جوهر الإسلام، فتكونت المدارس الصوفية مثل مدرسة الحسن البصري وإبراهيم بن أدهم ورابعة العدوية وذى النون المصري التي قام أمرها على المحبة الإلهية، ومدرسة حارث بن الحاسبي التي قامت على محاسبة النفس وتزكيتها.[1]

وأصبح لكل مدرسة أتباعها وأحبابها وروادها، ولكنها كانت مدارس علمية تتسم بطابع الفردية، فلم يربط بين مريديها وشيوخها صلة خاصة، ولم يجمع بين أتباعها أوراد ومناهج للسلوك محددة، ثم أخذ التصوف في القرنين الثالث والرابع يدخل دور الازدهار والكمال وجاء سيد الطائفة الإمام أبو القاسم الجنيد فالتقت عنده المناهج الصوفية كافة، ووضحت به السمات العامة وأحاط بالجنيد طائفة ضخمة من أئمة التصوف وشيوخه، وكان عصره يموج بالعلم والمعرفة، وكانت للتصوف القدح المعلى، وكانت كلمة الجنيد كلمة العالم الإسلامي، فقد قالت والدة الخليفة العباسي إن جنيد سلطانه على جماهير بغداد أكبر من سلطان الخليفة، وهو الذي يستحوذ على القلوب والعقول، وقد انجبت مدرسة الجنيد خلال القرون أعلاماً خالدين في سماء التصوف وأئمة مهتدين هادين هم من أعظم وأشرف ما عرفت الدنيا من رجال التربية والسلوك، أناروا للناس الطريق وجددوا للأمة الإسلامية دينها، وأعادوا للعالم الإسلامي دوره القيادى في الحياة أمثال عبد القادر الجيلاني والإمام سيد أحمد الرفاعي والإمام السيد أحمد البدوي وإبراهيم الدسوقي وأبي الحسن الشاذلي وعلاء الدين النقشبندي.[2]

وهكذا لمعت في بلاد الهند كذلك نجوم تلألأت في سمائها، منحدرين من بلاد ما وراء النهر وخراسان، ودخلوا الهند دعاة مرشدين، فخالطوا أهلها وعاشروهم ولقنوهم مبادئ دين الحق، وعلموهم آداب الإسلام، فتأثر سكان البلاد بأخلاقهم الزكية وسجاياهم العالية، واختاروا الإسلام ديناً لهم عن طيب قلب ونفس وانشراح صدر، غير أن هذا الوضع تغير ولطخت هذه المسيرة الطيبة بالأدران والتصوف الباطل والعادات الوثنية، وبدأت الدعوة الإسلامية الإصلاحية تتقهقر وتتنكب عن المنهج القويم، وذلك مثل حال القرن العاشر للهجرة، وعندما تولى أحفاد تيمور وامتلكوا ناصية الأمر سنة 817هـ، هذا العهد كان أكثر شؤماً وأعظم بلاءً على الإسلام، فقد ظهر من بين ملوك المغول من أحفاد تيمور من حارب الإسلام وناصبه العداء واضطهد القائمين بدعوته الساعين في رفع كلمته، وأرهقوهم بأنواع من العذاب والأذى والتضييق، والذي تولى كبر هذه المحاربة الشنيعة هو الملك "جلال الدين أكبر" الذي تبوأ سرير الملك سنة 964هـ وساس البلاد خمسين سنة كاملة حتي توفى سنة 1014هـ، وفي هذه الأثناء أراد الملك أن يقضى على الإسلام أو يلغيه حسبما اصطلح عليه أنصاره وأشياعه بأن يضع ديناً جديداً مقتبساً من شعائر الوثنية ورسومها، فقد اختار الملك لتنفيذ أهدافه طرقاً عديدة، ومناهج متشعبة فمنها: التزوج من بنات أمراء الهنادكة مع بقائهن على عقائدهن وأدائهن شعائرهن في القصر الملكي، وقد وصل هذا الرجل من الكره والعداء للإسلام أن يسمى الخدم والفراشين بأسماء النبي صلى الله عليه وسلم، أحمد ومحمد تحقيرا لشأن الرسالة، كذلك استبدل بالتقويم الهجري الإسلامي تقويماً جديداً سماه التقويم الإلهي، ويجدر بنا هنا أن نشير إلى الأوضاع السياسية والدينية وأسباب القلق والفوضى في الإفكار في القرن العاشر في الهند تمهيداً للحديث عن جهود الإ التي قادها أحد أعلام هذا العهد، وهو الشيخ أحمد السرهندي.

الأوضاع السياسية والدينية وأسباب القلق والفوضى في الهند في القرن العاشر:

أولاً: الأوضاع السياسية:

لما بدأ القرن العاشر كانت الأسرة اللودهية تحكم الهند، وقد قتل آخر ملوكها إبراهيم اللودهي عام 932هـ، على يد مؤسس الدولة المغولية ظهير الدين محمد بابر الكوركاني (888-939هـ)، وتأسست على أنقاض الدولة اللودهية، المملكة المغولية، التي كانت من أكثر ملوك دول الهند استحكاماً وتنظيماً، وأوسعها رقعة، وأطولها عمراً، كانت الأسرة اللودهية – لتمسكها بالتقاليد الأفغانية، والنسب الأفغاني متمسكة بالإسلام، متقيدة بالمذهب السنّي الحنفي، لم تعرف التجدد و"العلمانية" والسياسة اللادينية، وكان من أكثر هذه الأسرة تديناً، وتقديراً للعلماء، وتشجيعاً للعلوم الإسلامية الملك سكندر اللودهي (م924هـ)، كما سعدت الهند خمس سنوات من هذا القرن بحكم الملك شير شاه السوري (946-952هـ)، الذي لم ينهض في تاريخ الهند الإسلامي ملك متدين عالم أحسن منه تنظيماً وتقنيناً، وأكثر منه توفيقاً للأعمال الخيرية، وتحقيق المشاريع الهائلة في المصلحة العامة، ولم يحصل للهند بعد وفاة الملك شير شاه سوري، إلى تولي الملك أكبر للدولة، الاستقرار السياسي، والتنظيم السليم، ولم يقر للحكومة قرار، ولم يذق سكان البلاد طعم الأمن والرخاء والراحة، فقد كان الملك سليم شاه خليفة أبيه العبقري السلطان شير شاه السوري لا يمت إلى أبيه في تنظيمه وتدبير مملكته بسبب، ولم يستطع كذلك الملك نصير الدين همايون خليفة الملك بابر (937-963هـ) أن يحكم الهند في أمن واستقرار، فقد شردته حملات الملك شير شاه السوري الظافرة، وخذلان إخوته كل مشرد، وكان شأنه هذا، حتى اتصل بطهماسب الصفوي ملك إيران، وطلب منه المساعدة، فتهيأ له الاستقرار، واعتلى الملك أكبر عام 963هـ عرش الدولة المغولية، ودام في الحكم نصف قرن، بأبهته وعظمته من غير منازع [3] وتولى نور الدين جهانگير المُلك في عصر الإمام السرهندي نفسه، حينما كان ابن ثلاث وأربعين سنة، وتوفي الإمام السرهندي في عهده، وكانت هناك –عدا هذه الدولة المركزية التي جعلت عاصمتها دلهي حكومات إقليمية في ولاية كجرات، وبيجافور، وكولكندة، وأحمد نكر، كانت تحكم هذه المناطق بصورة مستقلة، وكانت الحكومات المؤخرة الذكر من الحكومات التي كانت تعتنق المذهب الشيعي. 4ـ وبسبب هذا الخلط والتأثر الشيعي المعادي تغيرت صورة الدين الصحيح بأيدي هؤلاء الملوك المغول بمساعدة علماء السوء الذين يأتي ذكرهم فيما بعد مع أسمائهم إن شاء الله تعالى.

ثانياً: الأوضاع الدينية والروحية للعالم الإسلامي عامة والهند خاصة:

لقد كان التدين سمة سائدة إذ ذاك على العالم الإسلامي كله، فكان عامة الناس –رغم إنحطاطهم الخلقي والعلمي راسخي الإيمان، محبين للإسلام، موالين له، وكانوا يمتازون بالحمية الدينية والحماسة الإسلامية، على تصورهم الخاص، وبالرغم من أنهم كانوا يقترفون كثيراً من البدع، ويرتكبون ما يخالف الإسلام –أحياناً ولكن كانوا شديدي الكراهية للكفر والإلحاد، يشمئزون منهما ويتبرءون.

وكان تأسيس الدولة الإسلامية في الهند على أيدي الحكام من الأسر الأفغانية أو التركية، فكان تأثير الدين –لأجل ذلك عميقاً في قلوب أهل هذه البلاد، وإن كان هذا التأثير ساذجاً بسيطاً، شأن العقلية الأفغانية والتركية، وذوقها الخاص، وما

زال الناس متمسكين بالسنية والمذهب الحنفي باستثناء بعض المدن الساحلية، ومنطقة مالابار في جنوب الهند وكان المذهب الحنفي هو الذي يطبق في الدولة، ويتحكم في المحاكم، وألّفت هنا بعض الكتب المهمة في الفقه الحنفي كـ"الفتاوى التتارخانية" و"فتاوى قاضي خان". [5]

ويمتاز عدد من السلاطين في تاريخ الهند الإسلامي بحمايتهم الشريعة الإسلامية، والسنة المطهرة، وكراهة الكفر والإلحاد، ومحاربة البدع والمنكرات، والحمية الدينية والغيرة الإسلامية، ويكفينا أن نذكر "محمد تغلق" و"فيروز تغلق" في القرن الثامن، والسلطان سكندر اللودهي في القرن العاشر.

وكان السلطان محمود سليم شاه السوري يؤم الناس في الصلوات في المسجد،وكان يجتنب المسكرات أشد الاجتناب.[6]

لقد كان هذا العصر عصر رقي التصوف، وازدهار السلاسل والطرق، حتى لم تبق بقعة من بقاع العالم الإسلامي خالية من طريقة صوفية، وكانت الطرق حديث المجالس والنوادي، وكانت "بخارى" و"سمرقند" المركزان العلميان، والروحيان والمدينتان المعروفتان في تركستان، و"بدخشان" وهرات في أفغانستان، و"طنطا" و"الإسكندرية" في مصر و"تعز وصنعاء" في اليمن، و"شحر" و"تريم" و"سيون" في حضرموت، مراكز كبيرة للعلماء والصوفية، ومشائخ الطرق، و كانت أسرة باعلوي العيدروسية في حضرموت ذات شهرة وقبول في الناس ومعروفة بالفضل والعلم، وفي هذا العصر كان الشيخ أبو بكر بن عبد الله بن أبي بكر شيخاً ذا مكانة مرموقة يعرف بقطب العالم، وكانت مدينة "تريم" مركز أشراف آل باعلوي، ومن مشاهير أولياء هذا العصر الشيخ سعد بن علي السويني بامدحج السعيد، الذي ذكره الشيخ محيي الدين عبد القادر العيدروسي في كتابه الشهير "النور السافر في رجال القرن العاشر"، وختم بترجمته – التي تمتد من صفحة 466 إلى 480 من الكتاب.[7]

وقد كان للطريقة القادرية، وللطريقة الجشتية – بفرعيها النظامية الصابرية رواج وانتشار، نبغ فيها شخصيات عديدة معروفة بالعلم والفضل والصلاح والزهادة، ولكن من الحق أن يقال إن هذا القرن قرن الطريقة الشطارية العشقية، التي تسلمت زمام القيادة الروحية لهذه البلاد من الطريقة الجشتية، وعمت الهند كلها. [8]

أسس الطريقة الشطارية الشيخ عبد الله شطار الخراساني الذي نزل الهند في أوائل القرن التاسع بالتقريب، واستوطن "ماندو" عاصمة الولاية الخلجية في الهند الوسطى، وتوفي سنة 832هـ، ودفن داخل القلعة في ماندو، كانت حياته حياة الأمراء، يمتاز بالجذب والتأثير، انتفع به خلق كثير، وانتشرت طريقته في الهند بسرعة فائقة، ولهذه الطريقة فرعان، ينتمي فرع منها إلى الشيخ محمد غوث الجوالياري، وبينه وبين الشيخ الشطاري ثلاث وسائط، وينتمي الفرع الثاني إلى الشيخ علي بن قوام الجونبوري، المعروف بشيخ علي عاشقان السرائي ميري[9]. بينه وبين الشيخ عبدالله الشطاري واسطتان، وقد مزجت هذه الطريقة، لأول مرة، تعاليم "يوكا"[10]. بالتعاليم الصوفية، واختارت من الأولى بعض الرياضات والأوراد، وحبس النفس.

عدا هؤلاء المشائخ المذكورين أعلاه كان الشيخ عبد الله السنديلوي (924-1010هـ) والشيخ عيسى بن قاسم السندي خليفة الشيخ لشكر محمد عارف بالله وكان معاصراً للإمام السرهندي، ويقاربه في السن – من مشاهير مشايخ الطريقة الشطارية

العشقية"[11] .وكان هناك مشائخ كبار–غير هؤلاء المشائخ المشهورين من السلسلة الشطارية العشقية– ينتمون إلى سلاسل وطرق أخرى، كان منهم الشيخ جائين لده السهنوي(998هـ). [12]

وشيخ آخر يسمى الشيخ عبد الرزاق الجهان جهانوي (949886هـ) كان من أصحاب الطريقة القادرية الجشتية. ونبغ في هذا القرن الشيخ عبد القدوس الكنكوهي (م944هـ) وعلا صيته، وطنّت حصاته، ونالت الطريقة الجشتية الصابرية منه حياة جديدة، وكان الشيخ قطب الدين بينادل (776-925هـ) مرشد الطريقة القلندرية، والشيخ كمال الدين (م971هـ) في قرية كيتهل – بمديرية أنبالة من رؤساء الطريقة القادرية، ومرشديها الكبار.

وكان الشيخ نظام الدين الأميتهوي (900-979هـ) في ولاية "أودهـ" من كبار رجال السلسلة الجشتية مع الدفاع عن الشريعة الإسلامية والاتباع للسنة النبوية، وصلاح السيرة. [13]

هذه هي الأوضاع الروحية والدينية السائدة في الهند – آنذاك وهؤلاء هم مشايخ الطرق وأصحاب السلاسل في الهند على اختلاف مسالكهم ومشاربهم، وتفاوت مراتبهم ودرجاتهم، الذين كانوا أسسوا في القرن العاشر الهجري في الأماكن المختلفة مراكز تربوية روحية، وكان أصحاب العاطفة الدينية العميقة من الطالبين للسلوك والمحبين للزهاد والصالحين من عامة الناس وخاصتهم يتصلون بهم وينتمون إليهم، ويتمسكون بطريقتهم، وقد شرحت هذه الأوضاع، وتناولت هذا التاريخ بشيء من الإفاضة وإطالة النفس، ليتيسر للقارئ تقدير الجوّ الذي تنفس فيه الإمام السرهندي، والعهد الذي عاصره، وذوقه وميوله، وما كان من الإمكانيات والصعوبات للعمل الإصلاحي التجديدي العظيم الذي قام به الإمام خير قيام.

القلق والفوضى في الأفكار والعقائد وأسبابها:

إن دراسة التاريخ والتعمق في فلسفته يدل على أن الأسباب الأصلية والدوافع القوية لمثل هذا القلق والاضطراب والحركات الهدامة الناشئة من ردود الفعل والفوضى في المعتقدات والأفكار تتحدد – بصفة عامة فيما يأتي:

1 تعارض القول والفعل، والعقيدة والحياة، والتناقض الموجود في المجتمع، كان يحمل القلوب الحساسة، والمشاعر المرهفة على القلق والتوجع، وأصحاب النفوس المضطربة القلقة إذا لم يساعدهم الحظ في إنشاء حركة أو دعوة إيجابية بناءة، فإنهم يصابون دائماً بالشك والارتياب وإثارة الفتن، ومن هنا يوجد المجتمع الفاسد الذي تقوم هذه الدعوات لإصلاحه ومعالجة فساده.

ويبدو أن المجتمع في آخر عهد حكومة الأسرة السورية، وبعد قيام الدولة المغولية أصيب بهذا الداء العضال، واتجه هذا الاتجاه المتهور، ونفذت قوانين معارضة للإسلام، وطبقت عادات وأعمال تناوئ الدين ولا تمت إليه بأي صلة. [14]

2 استبداد الحكام والسلاطين، وسلطتهم المطلقة، وظلمهم وعدوانهم وإعراضهم عن أحكام الشريعة الإسلامية، و عبادتهم للنفس والأهواء مما يحمل الرجال الأقوياء الطامحين على ثورات تهزّ الدولة، وتلحق الأضرار بالمسلمين.

3 غلبة الطقوس والتقاليد، والاهتمام البالغ بالمظاهر الجوفاء، وانحطاط المجتمع الخلقي والعقلي، وجمود الأوساط العلمية، وسيطرة التقليد الأعمى عليها[15] .وفقدان المناهج التعليمية المليئة بالحيوية والنشاط وبعدها عن الواقعية، وفقرها في

إقناع العقول المتطلعة، والأذهان المتشككة.

4 عدم وجود شخصية دينية قوية تسمو على المستوى العام في مقدرته العقلية، والروحية، تملك التأثير القوي، وتجذب النفوس، وتأخذ بمجامع القلوب، وتزيل الريب والشكوك، وتعالج الروح القلقة، والنفس المضطربة، وتنفخ في جسم المجتمع الخامد روحاً جديداً، وتعيد الثقة والاعتماد على خلود الإسلام، وصدق الرسالة المحمدية، والشريعة الإسلامية، وأن أسباب الرقي والكمال موصولة بها، راجعة إليها.

وتدلنا دراسة تاريخ القرن العاشر– في ضوء كتب السير والتراجم، وسجلات الوقائع والحوادث على أن هذه الدوافع والأسباب الطبيعية للفوضى والاضطراب تضاعفت في الهند على أقل تقدير بالنسبة للقرون الماضية، وكان من نتيجة ذلك، ظهور هذا القلق الفكري، والحركات الثورية الهدامة، على هذا النطاق الواسع في القرن العاشر. وعلى رأسها هؤلاء العلماء السوء الذين آثروا الدنيا على الآخرة، ووصلوا إلى بلاط السلطان وكسبوا عاجلهم، وتركوا آجلهم (الآخرة)، وخربوا على المسلمين دينهم وعقائدهم متوسطين إلى بذلك الملوك مثل الملك الأكبر الأُمي الذي أفسد الدين الإسلامي وقام باختراع دين جديد سماه "بالدين الإلهي" ونقف هنا وقفة قصيرة مع "أكبر" وما قام به من الفساد.

فتنة جلال الدين أكبر في القرن العاشر الهجري في الهند وطغيانه:

اتفق المؤرخون للهند و بصفة خاصة مؤرخو عهد الملك أكبر أنه بدأ وباشر إدارة البلاد مسلماً راسخ العقيدة متنسكاً مع التقشف في الحياة والمغالاة في العقائد. ونذكر للدلالة والحجة منتخب التواريخ للعلامة عبد القادر البدايوني في 1004هـ. من كبار مؤلفي العهد الأكبري. يتحدث عن عهد الأكبر أنه كان مسلماً ساذجاً على طريق أهله وسلفه من ملوك تيمور، كان لعدم تلقى الدراسة وتأثير البيئة المحيطة به وتقاليد عصره التي عمت فيها البدع والمغالاة في تعظيم المشائخ وزيارة الأضرحة، والمشاهد يُشد الرحال لزيارة قبور المشائخ والصالحين، فكان يُعَاقِب الناس على مخالفة عقائد الجمهور لقلة التدين وضعف الاعتقاد، ويقدم النُذور إلى أضرحة الأولياء والصالحين ويشتغل بالأذكار والأوراد.

أما الفترة الثانية من حياة جلال الدين أكبر ففيها تبدل فكره كاملاً وحياته حتى استخف بالأحكام الإسلامية وأخذ بالرسوم والتقاليد الهندية واتخذ إجراءات لتكوين دين جديد سماه بالدين الإلهي الذي يدعو إلى عقيدة وحدة الأديان والنفور من الإسلام والتسامح البالغ مع غيره من الديانات والموقف المعارض والمعاند للإسلام، وفيما يلي أذكر أهم الشطحات والشبهات والعقائد والإجراءات التي قام بها جلال أكبر في عهده، فإنه لم يكتف بذلك، بل أراد أن يكون زعيماً للسياسة اللادينية والحكومة الهندية.

وهذا من أبز الجوانب المعادية للإسلام في حياة أكبر، كان أكبر يريد أن تكون رعاياه في الهند راضين عنه، فولى بوجهه عن الإسلام، وشجع علماء السوء الذين كانوا مستعدين في أهدافه، فجاء بالدين الإلهي، ليكون حسب زعمه متلائماً مع كل زمان ومكان، ويواكب ميول أهل العصر وأهواءهم ونزعاتهم، كان يقول إن هذا الدين الذي جاء به محمد العربي والبدوي قد مضى عليه ألف سنة وقد بلى ثوبه، والأحكام الإسلامية هي ليست أبدية بل هى موقوته بزمان وعصرٍ، والعصر الجديد

في حاجة إلى دين جديد يوافق أهواءهم ونزعاتهم، فأعلن عن دينه الجديد الذي سماه بالدين الإلهي. وكان شعاره في ذلك "الله أكبر". يعنى به الملك المعتوه الملك أكبر. يعنى "أكبر" الملك هو "الله" وقد ورطه في هذا الأمر الجديد بعض علماء السوء وخاصة "ملا مبارك" وولداه أبو الفضل وفيضى وأمثالهم، بأن الله يريد أن يبدل دين النبي الأمي بالملك الأمي مثلك، ولذلك أتى أمثال هؤلاء إليه وشجعوه على مثل هذه الدعوى بعد الاستيلاء على العرش الملكي – فأبطل كثيرا من شعارات الإسلام، وأبطل كثيراً من الأحكام و أدخل في المقابل كثيراً من المحرمات.

أوج الانحراف الطبيعي والضلال الديني في "أكبر":

ونود أن نقدم هنا مقتبسات من كتاب أبي الفضل العلامي، الذي كان العقل المدبر و اليد الفعالة وراء أكبر، لنرى مدى ذلك الضلال الديني ، والانحراف الطبيعي، والزيغ والجنون الذي بلغ بأكبر إلى ما بلغ، وإن هي إلا وقائع متناثرة جاءت في تصريحات أبي الفضل، فقد أصدر الأمر الملكي بالأمور الآتية المهمة:

1 إن الملك أكبر ليس في حاجة إلى الرجوع إلى القرآن والسنة، فأنكر الحياة بعد الممات والحشر، وأمر ببعض الأفعال الباطلة وأمر بتنفيذها فوراً.

:2 وحرف الشهادتين.

:3 تخصيص السجدة للملك.

:4 احتقار أسماء النبي صلى الله عليه وسلم.

:5 إلغاء التقويم الهجري بالتقويم الإلهي.

:6 تحليل الخمور.

:7 تحليل الربا والقمار.

:8 تحليل الخنزير.

:9 تحريم ذبح البقرة.

:10 تحريم حجاب المرأة.

:11 إلغاء الغسل من الجنابة بدليل أن إخراج المني ذريعة لخلق الصالحين والمفروض أن يغتسل قبل الجماع واختراع قوانين جديدة في النكاح.

:12 أمر بتحريم النكاح مع اليائسة، ولذلك إذا كانت المرأة أكبر من الرجل بأثنتى عشرة سنة لا يجوز له نكاحها.

:13 محاربة اللغة العربية.

وضع الشهادتين بغير صورتهما "لا إله إلا الله" (أكبر خليفة الله) مكان لا له إلا الله محمد رسول الله، واكتفى بتلاوته في قصره، واستيقن لنفسه العصمة، وقدم علماء السوء محضراً باللغة الفارسية تثبت للملك العصمة وتعطيه الحق في أن يشرع من القانون ما يشاء، ويضع من الأحكام ما يريد. كما نسخ الصلاة والصوم والحج، و أمر بعدم الختان قبل سن إثنتى عشرة سنة وحرية الختان بعد هذا العمر، و أحل الحرير ولبس الذهب للرجال كما أحل سؤر الكلاب وتربيتها في القصر الملكي وإلقاء النظرة عليها يومياً (16) وهكذا قلب الأمور الدينية والأحكام الإسلامية الشرعية، وهنا أود أن أقدم خلاصة تفسير بعض المقتبسات التي جاءت في تصريحات أبي الفضل الضال.

1 عبادة النار:

يقول أبو الفضل: "إن جلالة السلطان – لتنور بصيرته شغوف بالنور، ويعتبر تقديسه وتعظيمه من عبادة الله والثناء

عليه، وإن الجهلة الذين أظلمت قلوبهم يعدون ذلك عبادة النار والإعراض عن الله". [17]

2 **عبادة الشمس:**

كانت عبادة إله النور في معبد تسمى "دو آشيانه منزل" ومنها بدأ تعظيم الشمس، ويقول جلالة السلطان: إن للشمس اهتماماً خاصاً بحال السلاطين، ولأجل ذلك يعتقد أن عبادتها عبادة الله. [18]

3 **ماء نهر "كنكا":**

يقول: "إن السلطان يشرب –دائماً من ماء نهر "كنكا" (19) (الكنج) سفراً وحضراً، وقد عين فريق من الموظفين الثقات على شاطئ النهر، يأتي إلى السلطان بمائه في أكواب مملوءة مختومة، ويستعمل في المطبخ ماء نهر "جمنا" أو نهر "شناب" أو ماء المطر، إلا أن هذا الماء يكون ممزوجاً بشيء من ماء نهر جنجا". [20]

4 **مواقيت العبادة:**

"عند الفجر" الذي به البداية ليوم السعيد، والإشعاع والتنوير، وعند الظهر حيث يحيط ضوء الشمس الوهاجة بأطراف العالم، وينشط الناس نشاطاً مضاعفاً، وعند العشي إذ تغيب الشمس منبع النور والضياء عن أبصار الناظرين" وكان ذلك على منوال عبادة الشيعة مثل صلاة الفجر والظهرين والمغربين. [21]

5 **سجدة التحية والتعظيم:**

يقول: "يسجد له المريدون المعتقدون سجدة التحية والتعظيم، ويرونها سجوداً لإله النور". [22]

6 **البيعة والسلوك:**

"يأتي طالب المعرفة واليقين، حاملاً عمامته بيده، ويضع رأسه على قدمه الشريفة، ويقول بلسان حاله: أوجه قلبي بإرشاد سعادة جدي وحسن حظي إلى طاعة السلطان والخضوع لأمره". [23]

7 **آداب المقابلة:**

وكان من آداب المقابلة "أن ينادي شخص عند مقابلة شخص للسلطان، ب/الله أكبر، وينادي آخر، "جل جلاله"[24]

8 **كراهية التاريخ الهجري والنفور منه:**

"كان جلالة السلطان من مدة مديدة يفكر في إجراء تقويم جديد للشهور والسنين في الهند ليدفع المشكلات ويوفر التسهيلات، ولا يحب جلالة السلطان التاريخ الهجري لنقصه وعيوبه. [25]

9 **الأعياد والمهرجانات غير الإسلامية:**

إحتفال بالأعياد والمهرجانات الهندية والإيرانية غير الإسلامية معاً التي لا علاقة لها بالإسلام.

10 **فرمان يمنع الزكاة:**

بدأ هذا العام في "التقويم الإلهي" من 5 صفر 989هـ، [(23)] الأمر السلطاني برفع "تمغة" [(24)] وإلغاء الزكاة، [(25)] وأصدرت فرامين لتنفيذ هذا الأمر إلى جميع الجهات.

11 **الخنـزير:**

يقول: "إذا كان السبب في تحريم الخنزير قلة الحياء فيه، لزم من ذلك أن يكون الأسد وأمثاله من السباع حلالاً طيباً"[26]- أى إن كام تحريم الخنزير هو أنه غير حيى، فعلينا أن نأكل لحوم السباع و الوحوش!!

12 **شرب الخمر:**

"كان (جلالة السلطان) يتناول في مهرجان هذا الشهر، الرحيق المنبه للعقل والمنشط للفكر، وشرب المفتي مير صدر جهان، ومير عدل، ومير عبد الحي، كؤوساً من الخمر كذلك.

13 **إنكار المعجزات:**

"يقول السلطان: السفهاء يؤمنون بالمعجزات، ولكن العقلاء لا يعتقدون في شيء إلا بعد تحققه وثبوته بالدلائل"[27]

14 **استنكار الختان وكراهيته:**

"من العجب أن تصروا على ختان الأطفال، مع أنهم ليسوا بمكلفين بالفرائض والواجبات".[28]

15 **قوانين الزواج:**

"يرى جلالة السلطان أن الزواج مع ذوات القربى القريبة أمر مكروه، ويقول: "ألا يستنكر أتباع محمد صلى الله عليه وسلم المتعصبون المتزمتون الزواج ببنات الأخوال والأعمام، ويكره جلالة السلطان الزواج بأكثر من واحدة".[29]

16 **رؤية السلطان هي العبادة:**

"يقول جلالة السلطان: إن رؤية وجوه السلاطين هي العبادة، إنهم يسمون "ظل الله"، ولكن رؤيتهم تذكر في الحقيقة بالخالق، ويتبادر عندها الذهن إلى ظل القادر المطلق".[30]

17 **إعلان التقويم الإلهي وتنفيذه:**

"في عام 992هـ، أضاء نور العقل والبصيرة الشاهنشاهية شمعة العلم والفضل والكمال التي نورت – بضيائها المبارك الميمون جميع العالم، وقرر أن يكون العام الذي تربع فيه جلالة السلطان على عرش المملكة، بداية التقويم الإلهي"[31]

18 **الازدراء بالدين الإسلامي وإهانته:**

"لقد وصم تراث الملة الإسلامية كله بالحدوث، واعتبره مجموعة من السفاهات، وأن واضعيه ومؤسسيه أعراب وفقراء من جزيرة العرب كانوا مفسدين في الأرض، وقطاع طرق.[32]

19 **السخرية من الإسراء والمعراج:**

"قال السلطان مرة: كيف يتصور أن يقبل العقل أن شخصاً يحمل جسماً ضخماً يبلغ –بغتة عنان السماء، ويتحدث مع الله تسعين ألف حديث، ذي شجون، ويبقى فراشه دافئاً، ثم يقبل الناس هذه الدعوى، كما أنهم يؤمنون بشق القمر، وأمثاله من الأمور المستبعدة".[33]

20 **إهانة مكانة النبوة:**

واعترض على النبوة المحمدية – على صاحبها الصلاة والسلام مرة وعاب عليها: "بالإغارة على عير لقريش في أوائل أيام الهجرة، وتحريم العسل ابتغاء مرضاة الزوجات".[34]

21 **النفور من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم والكراهية لها:**

"كانت الأسماء مثل أحمد، ومحمد، ومصطفى وغيرها ثقيلة على سمع السلطان، مراعاة للكفار خارج البيت، والنساء داخل البيت، وأخيراً – بعد أيام قليلة غير أسماء خاصة أصحابه، فكان ينادي "يار محمد" و"محمد خان" باسم "رحمت"، ويكتب هذا الاسم نفسه عند الكتابة".[35]

22 **المنع من الصلاة:**

"لم يكن يستطيع أي واحد من الناس أن يؤدي الصلاة جهاراً في القصر".[36]

ويقول البدايوني: "إنه قد أسقط فرائض الصلاة والصوم والحج من قبل".[37]

23 **الاستهزاء بأركان الإسلام وفرائضه:**

ويقول البدايوني: "ألف ابن من أبناء ملّا مبارك، وكان تلميذ أبي الفضل، عدة رسائل عن العبادات الإسلامية في أسلوب تهكمي ساخر، وإيراد اعتراضات عليها، وقد نالت هذه الرسائل إعجاب جلالة السلطان وقبوله، وأصبحت واسطة له لدى السلطان في ولاية أمره، والحدب عليه".[38]

المخاطر السياسية والدينية والعقدية في ربوع الهند:

وهنا يقول الأستاذ أبو الحسن على الندوي: "وبالجملة فقد وقفت الهند التي بذلت فيها الجهود المتواصلة، وكرست الطاقات البشرية الفاضلة، و الكفاءات العقلية والمواهب الفكرية، وربانية الصالحين والصفوة الطيبين على طريق ردة دينية عقلية، وحضارية شاملة، كانت تساندها أكبر دولة على وجه الأرض في ذلك العصر بعد الدولة العثمانية والقوة العسكرية الهائلة، وكان عدد من أذكياء ذلك العصر ونوابغه يمدون هذه الدولة بالأسلحة العلمية والعقلية، فلو كان سير الأحداث والظروف مستمراً على هذا المنوال، ولم تقف في وجهها شخصية جبارة تحول اتجاه السير، أو لم يحدث حادث يغير الأوضاع، ويحول البلاد، لكان مصير هذه الدولة والبلد الإسلامي العظيم في القرن الحادي عشر الهجري، كمصير الأندلس الإسلامية –الذي لا يعرفه العالم المعاصر إلا باسم "إسبانيا" في القرن التاسع الهجري، أوكمصير "تركستان" في القرن الرابع عشر الهجري (بعد الثورة الشيوعية)، ولكن أدرك الله البلاد والعباد، وقيض للإسلام رجلاً يحفظه من الكفر والشرك والضلال.

ونختم جملة هذا البيان بالكلمة البليغة التي سطرها قلم مؤرخ الإسلام ومؤلف موسوعة "السيرة النبوية" العلامة السيد سليمان الندوي، وهو يتحدث عن "قصة الإسلام وغربته في ديار الهند" يقول: "لقد مضى على هذا السبات العميق أربعة قرون، وكاد أن يمضى على بداية رحلة الإسلام الغريب في هذه الديار ألف سنة، كان ذلك عهد الملك أكبر، إذ نهض ساحر من العجم ونفث في أذن الملك، أن عمر هذا الدين الممتد على ألف سنة قد انقرض، ومست الحاجة إلى أن يظهر دين إلهي جديد على يد ملك أمي ينسخ دين نبي أمي، فأوقد المجوس النيران في معابدهم، ودقت النصارى نواقيسهم في كنائسهم، وزينت

البراهمة أصنامهم، تمالأ التصوف واليوك وألحّا على أن يشعلا شمعة واحدة في المعبد الهندكي والكعبة، وإذا أراد إنسان أن يتصور مدى ما تركت هذه الحركة الخماسية من آثار فليراجع "دبستان مذاهب"[39] ـ ليرى كم من أصحاب الزنّار يحركون المسابح، وكم من أصحاب السبح يعلقون في أعناقهم "الزنانير"، كم من الأمراء يمرغون وجوههم على عتبة السلطان، وكم من أصحاب العمائم يقفون في البلاط، ويسمع من منابر المساجد نداء: "تعالى شأنه الله أكبر"

كانوا في كل هذا، وإذا بصوت يعلو من جهة "سرهند":

"أن خلّوا الطريق، فقد جاء صاحب الطريق، ظهر مجددٌ فاروقي[40]، في الأبهة الفاروقية، كان ذلك أحمد السرهندي".[41]

حياة الشيخ السرهندي:

نسبه وولادته:

هو (الشيخ أحمد بن عبد الأحد بن زين العابدين السرهندي الفاروقي)، يتصل نسبه بإحدى وعشرين واسطة إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولد ليلة الجمعة 14 شوال 971هـ 1563م بمدينة سرهند (ببلاد الهند– بلدة عظيمة بين دهلي ولاهور)، وسماه والده "شيخ أحمد" وكان معروفاً بمجدد الألف الثاني، كانت تبدو عليه من صغره مخايل السعادة والخير، وسيما الرشد والصلاح[42] ـ بدأ تعلمه بحفظ القرآن الكريم ولم يمض كثير من الزمن حتى حفظه كله عن ظهر قلب، ثم بدأ يتعلم مبادئ العلم عند والده، وبعد مدة يسيرة برزت مواهبه وصلاحيته[43] ـ وأخذ أكثر العلوم والطريقة الجشتية عن أبيه، واستفاد بعض العلوم العقلية عن الشيخ كمال الدين الكشميري، وأسند الحديث عن الشيخ يعقوب بن الحسن الصرفي الكشميري، ولما فرغ من تحصيل ما تيسر له من العلوم الظاهرة، وكان إذ ذاك ابن سبع عشرة سنة، اشتغل بالتدريس والتصنيف، ومما صنفه في تلك الأيام رسالة في إثبات النبوة وأخرى في الرد على الشيعة الإمامية وغير ذلك مما أثنى عليه العلماء، وألبسه أبوه خرقة الخلافة.

فلما توفي أبوه عام سبعة وألف ارتحل إلى دهلي يريد الحج، فقاده قائد توفيق من الله عز وجل إلى الشيخ الأجل رضي الدين عبد الباقي النقشبندي رضي الله عنه، فأخذ عنه الطريقة النقشبندية، واشتغل بها وتدرج في أيام معدودات إلى أوج القطبية والفردية، ثم إلى ما شاء الله تعالى، حتى بشره الشيخ بحصول رتبة التكميل والترقي إلى مدارج القرب والنهاية،ثم أجاز له بإرشاد الطالبين، وألبسه خرقة الخلافة، ولم يزل يكرمه ويجله ويفتخر به ويثني عليه بما لا يبلغ وصفه..."

فكانت أسفاره لأجل تحصيل العلوم الظاهرية والعلوم الباطنية بين مدينة لاهور وأكره وسيالكوت ودلهي وسرهند وغير ذلك، ومرّ في آخر عمره بعدد من المدن والقرى حينما رافق العسكر الملكي لثلاث سنين–كما سيأتي ذكره قريباً فتلقاه أهلها بالحب والتكريم، واستفاد من صحبته الطالبون والسالكون.[44]

الإجراءات الإصلاحية التي قام بها الشيخ:

قام الشيخ السرهندي لاعلاء كلمة الله، وجهر بالحق أمام الباطل،وانتبه الشيخ للأمر في أول وهلة، وجعل يراقب الأحوال عن كثب، ويعد عُدَّة لمقاومة الفتنة الأكبرية ومحاربتها، فقام بِدعوة واسعة بين جميع طبقات الشعب وبعث مريديه إلى أمراء الجيش ورؤساء الدوائر ممن أنس منهم رشداً، منهم خان خانان، خان أعظم، ومرتضى جهان، ينبههم من نوم

الغفلة، ويلفت أنظارهم إلى ما أتت به الفتنة الأكبرية من مصيبة وويلات للدين الحق وما جَرَّتْهُ من وبال على المسلمين.

فقد أصبح عصر أكبر عصر البلاء والوباء والمحن للإسلام والمسلمين، فاضطهد من اضطهد من عباد الله وحبس من حبس، والغريب أن كثيراً من العلماء لم يثبتوا في هذه المحنة، والغالبية منهم استسلموا لأمر الملك ولم يتحرجوا من التوقيع على المحضر الذي ادعى الملك فيه العصمة لوضع الشريعة، وبعد وفاة جلال الدين أكبر أقام الشيخ أياماً في البلاط الملكي يعظ وينصح ويسدد ويقارب، وكان من انتاج هذه المساعي والمواعظ البالغة أن رضي الملك الجديد بالغاء البدع والمنكرات التي ابتدعها أبوه الطاغية أكبر، فأصدر الملك قرارا بالغائها كما سيأتي في آخر البحث. و من أول ما اهتم به السيد المجدد إصلاح شان الحكومة ورجالها والقائمين بأمرها والمتصرفين في شئونها، لأنهم هم العمدة إذا صلحوا صلحت البلاد كلها وإذا فسدوا فسد المجتمع برمته. إنه رأى بثاقب فكره أن كل ما تتابع من النوائب على المسلمين في عصره وجميع ما أصيبوا به من ذلة في الدين وهوان للشعائر الكريمة إنما يرجع إلى علماء السوء الذين تهافتوا على حكام الدنيا الدنيئة، واشتروا بأوامر الله وسنة رسوله ثمناً قليلاً، فشوهوا سمعة الدين فكانوا مَثَل السوء لأمتهم وبني جلدتهم، حتى أصبح الناس يسيئون الظن بالدين نفسه، فوقف الشيخ موقفاً كريماً وجاهد جهاداً مشكوراً للكشف عن عورات علماء السوء، وجرد قلمه للرد على بدعهم وأباطيلهم التي اخترعوها وابتدعوها من تلقاء أنفسهم ونسبوها إلى الدين كذباً وزوراً. إنه شاهد بأم عينيه أن الذين يتسمون باسم الصوفية في عصره، قد تأثر أكثرهم بالفلسات الضالة مثل الحلول والفناء والاتحاد وغيرها مما لا يمت إلى الدين بصلةٍ، فقام الشيخ المجدد بقوته الجبارة في الرد على هؤلاء القوم وتفنيد أباطيلهم ودحض شبهاتهم ومزاعمهم، وخير دليل على ذلك كتابه المكتوبات، ونقض الأقاويل الباطلة عن طريق مكتوباته ورسائله. حتى نجحت دعوة الشيخ فعاد للإسلام مجده ورواؤه، وأصبح مسلموها في أمن على دينهم وأخلاقهم وأعراضهم.

حياة الشيخ العملية: التنظيمات الواسعة للدعوة والتبليغ والتربية والإرشاد وتهافت الطالبين عليه من كل مكان:

بعث الإمام السرهندي عام 1026هـ عدداً كبيراً من خلفائه إلى مختلف أرجاء البلاد للتربية والدعوة والإرشاد، فبعث سبعين شخصاً تحت قيادة الشيخ محمد قاسم وإمارته إلى تركستان، وأربعين شخصاً في إمارة الشيخ فرخ حسين إلى بلاد الحجاز، واليمن، والروم، والشام، وعشرة أشخاص من كبار المسئولين وأرق السالكين تحت قيادة الشيخ محمد صادق الكابلي إلى كاشغر، وثلاثين خليفة من خلفائه برئاسة الشيخ أحمد البركي إلى توران، وبدخشان، وخراسان، ولقي هؤلاء الخلفاء في المناطق التي وكلت إليهم نجاحاً كبيراً، واهتدى على أيديهم خلق كثير، وعمت الناس الإفادة والتذكير". [45]

أحمد السرهندي وجهانجير:

نشأ أحمد سرهندي في الربع الأخير من القرن العاشر للهجرة (16م) في نفس الوقت الذي كان "أكبر" يدعو فيه لدينه الجديد، فأخذ يرقب الأحوال، وبدأ ينظم حركة واسعة لمعارضة هذه الحركة الإلحادية، وبث أتباعه وَمريديه في أنحاء البلاد، وكتب إلى قواد الجيش وكبار الموظفين من أتباعه ومريدية في أنحاء البلاد، و خاطب من يأنس فيهم الرشد والإسلام الصحيح، ينبههم إلى هذه الخطر الداهم، ويحذرهم عاقبة هذه الفتنة العمياء، وما قد يكون لها من آثار خطيرة على الإسلام

والمسلمين في الهند كما قلنا آنفاً. ولم تظهر آثار دعوته إلا بعد موت أكبر، وفي عهد ابنه جهانكير (1014-1037هـ)، فقد سار هذا الابن على نهج أبيه، واضطهد علماء السنة ونكَّل بهم، وقرب إليه علماء الشيعة واتخذهم بطانة له مثل أبيه في بداية الأمر.

وعندما اشتد حماس الشيخ أحمد في معارضة ما يسمى بالدين الإلهي وما خلفه من آثار وفي مناهضة المذهب الشيعي، وعندما نشط هو وأتباعه في دعوتهم التجديدية لمحاربة البدع والعودة بالإسلام إلى أصوله الأولى، غضب عليه جهانجير – بإيعاز من علماء الشيعة ورجال القصر واعتبر نشاطه خطراً وأمر بالقبض عليه، وسجنه في حصن جواليور Gwalior.[46]

أسباب اعتقاله في حصن جواليار:

هذا ما ذكر في عامة كتب التاريخ والتراجم عن سبب اعتقال الإمام، وفرض الإقامة الجبرية عليه في قلعة "جواليار"، وأنه يرجع إلى المكاشفات والمشاهدات، والطريقة والسلوك العميق الذي يدل على عظمته وجلالة شأنه، وتفوقه على كثير من ربانيي هذه الأمة، ومشايخها المصلحين، واشتملت عليها رسالته الموجهة إلى شيخه خواجه عبد الباقي. ولكن مما يوقع في الشك و أن هذه المحنة وقعت بسبب سوء فهم لبعض المعاني، وخطأ في توجيه بعض العبارات، وأن السبب العامل وراءها يرجع إلى حمية السلطان جهانكير الدينية، وغيرته على الإسلام، ونبه عن عقائد أهل السنة وصيانتها من التحريف، أو أنه اتخذ هذه الإجراءات تحت ضغط بعض كبار العلماء والمشايخ – في عهده ذوي الوجاهة والنفوذ في بلاطه، ولشدة إلحاحهم عليه.

ولكن جهانجير لم يكن في يوم من الأيام صاحب هذه النفسية الدينية، ولم يكن له من ذكاء الحس، ودقة الشعور في هذه المسألة التي تعلو على مداركه، ولا تتعلق بأمور دولته وسلطته وسياسته في البلاد، ما يثيره على شخصية دينية محترمة ظلت مرجع الناس ومركز حبهم، وإعجابهم، وإجلالهم، ويتخذ لتأديبه هذا الإجراء الخطير.[47]

ونرى أن السبب الحقيقي للاعتقال هو ما كان بين الإمام وبين أركان الدولة وأمراء البلاط من علاقات خاصة، وصلات وثيقة، وما كان من حبهم وإجلالهم له، الأمر الذي يوغر الصدور، ويكفي لاستثارة مثل هذا السلطان المرهف الحس الذي خرج على والده، وأقام ضده ثورة قوية، ونازل أبناءه، واعتقل بعضهم حتى تمكن من عرش الدولة، وتولى زمام البلاد، ويمكن إضافة إلى ما تقدم أن يكون السلطان قد اطلع على تلك الرسائل المثيرة المؤثرة التي كان يكتبها الإمام إلى أركان الدولة، وأعضاء البلاط، لإصلاح الحال، وتوجيه الحكومة إلى حماية بيضة الإسلام، وإيقاظ الحمية الدينية في قلوبهم.

ومن الأمراء وأركان الدولة الذين وجه إليهم الإمام رسائله: خان أعظم مرزا عزيز الدين، وخان جهان خان اللودهي، وخان خانان مرزا عبد الرحيم قائد قواد الجيش، ومرزا داراب، وقليج خان وغيرهم.[48]

ولكنه سرعان ما عفا عنه، وهنا يقول أستاذنا الدكتور حسن الشافعي إنه قد اختلفت الروايات بشأن الأسباب التي دفعت الإمبراطور جهانجير إلى العفو عن الشيخ أحمد؛ فيقال إنه رأى في المنام من يقول: "ويحك! قد حبست رجلاً لا ترى مثله في الصلاح والورع". وتقول رواية أخرى وهي أقرب إلى الصحة إنه لم يمض على دخول الشيخ أحمد السجن إلا أيام قليلة حتى تغير الحال غير الحال، وأخذ الرجل ينفث من روحه بين المسجونين والجناة من القتلة والسارقين، ويلقي عليهم مواعظة، فإذا بهم بين يوم وليلة قد انقلبوا خلقاً آخر، وبدءوا يأتمرون بأوامر الشيخ في طاعة وخشوع، ويؤدون فرائضهم الدينية في أوقاتها وفي حرص

شديد، مما أثار عجب مدير السجن وإعجابه، فكتب إلى الإمبراطور يقول له: إن هذا السجين – الشيخ أحمد ليس كغيره من نزلاء السجن، وإنما هو في الحقيقة ملك قلما يأتي الدهر بمثله، فإن وافق السلطان أطلقنا سراحه وأكرمناه بما يستحقه.

عند ذلك ندم جهانجير على ما صدر منه في حق الشيخ أحمد، وأمر في الحال بإحضاره إلى قصره في "آجراه"، ولما علم بقربه من العاصمة أرسل ابنه وولي عهده "خرم" – شاه جهان فيما بعد – لاستقباله والترحيب به، ولما دخل الشيخ أحمد علي الإمبراطور حَيَّاه وَحَيَّا حاشيته بتحية الإسلام، ولم يسجد له، فحفظها الإمبراطور في نفسه، وتلقاه رغم هذا بالترحاب، وأبقاه معه في القصر لينتفع بنصائحه.[49]

الإقامة الجبرية في قلعة جواليار مرة أخرى:

وكانت هذه الإقامة للشيخ في قلعة جواليار كسجين بسبب لَفتِ بعض أبناء الدنيا ممن لا يخاف الله، نظر السلطان إلى أن الإمام لم يراع أدب الدخول عليه، ولم يأت بالتحية المعتادة للملوك[50]- فسأله السلطان عن السبب، فقال: إنني لم أزل متقيداً بالآداب والأحكام التي دعا إليها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولا أعرف غير هذه الآداب، فغضب السلطان، وقال اسجد لي[51]- فقال الإمام: ما سجدت لغير الله قط، ولن أسجد لغيره أبدا!! فتغيظ السلطان وزاد غضبه، وأمر بفرض الإقامة الجبرية عليه في قلعة جواليار[52]- ثم إن السلطان – لسبب من الأسباب (53) ندم على ما فرط منه، أو رأى هذه المدة للحبس تكفي لتأديبه، وأبدى رغبته في اللقاء، فوجه إليه الدعوة للحضور في البلاط، وبقي الإمام السرهندي في قلعة جواليار عاماً كاملاً، فلعل الإفراج عنه كان في جمادي الآخرة عام 1029هـ الموافق 1620م.

الإمام في عسكر السلطان ومعيته وتأثيره الديني :

خرج الإمام من القلعة في عزٍ وإجلال واحترام، وأقام بسرهند لثلاثة أيام، ثم توجه إلى عسكر السلطان، حيث استقبله ولي عهده خرّم شاهجهان بن جهانكير الذي تولي الملك بعده، ورئيس الوزراء، وأمره السلطان بأن يمكث في العسكر لعدة أيام، فقبل هذه الدعوة، وقد أفادت هذه المرافقة وأثرت في السلطان وأفراد العسكر، يقول جهانكير في "توزك": "أعطيته الخلعة وألف روبية لنفقته وخيرته بين أن يذهب أو يبقى معنا، فاختار مرافقتنا والبقاء معنا". وقد كتب الإمام عن مرافقته للعسكر وفوائدها وثمراتها إلى أبنائه، يقول: أرى البقاء في العسكر مع عدم الخيرة وقلة الرغبة فرصة طيبة، وأفضل ساعة واحدة معهم على كثير من الساعات في أماكن أخرى". (54) ويقول في رسالته أخرى:"الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، إن الأوضاع والظروف التي أنا فيها تستوجب الحمد، فنقضي ساعات طيبات في مجالس رائقة عجيبة، ومذاكرة مفيدة، ولا يجد الكسل والمداهنة – بفضل الله ورعايته سبيلاً إلى هذه المحادثات والمذاكرات عن الأمور الدينية والأصول الإسلامية".

ولما رأى الملك جهانكير هذه الأمور الخارقة للعادة من الشيخ في الحضر والسفر من الدعوة والصبر والتأسى ورأى من كراماته فإنه دعاه إلى القصر الملكي فلم يدخل الشيخ القصر ولم يستجب للدعوة إلا بشرط أن يلغى الملك كل ما أحدثه أبوه من بدع، فوافق السلطان ودخل الإمام القصر فاتحاً وغالباً على علماء السوء والبدع التي أحدثوها في عصر أبيه أكبر.

نجاح حركة الشيخ أحمد التجديدية:

كان لبقاء الشيخ في القصر كما سبق آثار طيبة، فقد استطاع أن يقنع الإمبراطور بإلغاء كثير من البدع التي استحدثها أبوه أكبر، فأصدر بعد قليل أمراً ملكيّاً نص فيه على ما يأتي:

1: تحريم السجود للملك.

2: إباحة ذبح البقر وأكل لحمه.

3: إعادة بناء المساجد المهدمة.

4: إبطال القوانين المعارضة للشريعة الإسلامية.

5: تعيين القضاة والمحتسبين في مختلف المدن الهندية.

6: إصلاح الحكم وإلغاء الأمور الأخرى التي أحدثها أبوه

وبذلك آتت حركة الشيخ أحمد التجديدية أكلها، وعاد للمجتمع الإسلامي في الهند اطمئنانه، وانتهت حركة الاضطهاد لعلماء السنة، وبدأ المسلمون يحسون الحرية التامة في القيام بشعائر دينهم.

وكان من آثار جهود الشيخ السرهندي أيضاً، تلك النهضة التي قادها شاه ولي الله الدهلوي في المرحلة التالية. وحصل كل هذا بجهده واجتهاده وصبره ومصابرته وتوجيهاته القيمة وعدم غفلته عن الفرد والمجتمع من جانب والرعية والشعب و الحكومة والسياسة من جانب آخر، ومن الإدارة والتنظيم والتربية والتعليم الصحيح على المنوال النبوي والسلف الصالح، بعيداً عن الإفراط والتفريط الذي وقع فيه بعض أهل الدنيا والهوى في زي ديني وتسببوا في تغيير وتبديل وإساءة سُمعَةِ الإسلام ووجهه النقي.

منهج الإمام السرهندي للوصول إلى مرحلة التمكين:

1 اهتم بتعليم وتربية مجموعات هائلة من أفراد الأمة وأعدهم إعداداً تربوياً عملياً،و أعدهم إعدادا دعوياً رفيع المستوى، ثم أرسلهم إلى القرى والمدن لدعوة الناس.

2 اهتم بتقدير فكر الفلاسفة المنحرف، والصوفية الباطلة من أصحاب الحلول والاتحاد، وبين الطريق الصحيح لمعرفة الحق، والوصول اليقيني إلى معرفة الإله الواحد من خلال القرآن ومنهج أهل السنة والجماعة.

3 حارب كل أنواع الشرك ومن أقواله في ذلك: "إن تعظيم مظاهر الشرك وأعياد الجاهلية من أعظم أنواع الشرك بالله —عز وجل وإن من يعتقد بصحة دينين، وصلاحيتهما في وقت واحد، فهو مشرك، وإن من يعمل بأحكام الإسلام وأعمال الكفر والشرك فهو مشرك، ولا يتم الإسلام إلا بالبراءة من الشرك ومحادته ومعاداته، وإن التوحيد هو الاشمئزاز والتبرم من كل شائبة من شوائب الشرك". (55)

4 اهتم بالدعوة إلى التوحيد الخالص، وخلود رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، ودعم وحدة المسلمين وإعادتهم إلى حظيرة الإسلام، وكان سبباً في حماية المسلمين في بلاد الهند من ردة محققة.

5 قاوم المد الشيعي الذي اخترق البلاط الملكي في عهد جلال الدين أكبر ونور الدين جهانكير، ورفع راية أهل السنة جهاراً ونهاراً، بل استطاع أن يصل إلى معسكر الملك وبلاطه بواسطة تلميذه بديع الدين السهارنبوري.

6 اهتم بالأمراء الذين ظهر منهم تدين، وفيهم شهامة وحب للخير، كما قام بإرسال الرسائل التعليمية إليهم، تركت أثراً طيباً على القادة والأمراء والتفافهم حول القرآن والسنة.

7 استطاع الإمام السرهندي بعد جهاد مرير وعظيم أن يصل إلى الملك نفسه، وأصبح من حاشيته ولم يترك جلساء السوء ينفردون به، بل دعا قواد الجيش وحاشية الملك إلى الإسلام الصحيح، وتأثروا بالإمام السرهندي لما رأوا فيه من حسن الخلق وغزارة العلم، وإخلاص للدين، وزهد وورع متين، وحكمة في الدعوة إلى الله، ولقد تعاون أولئك القادة مع الإمام السرهندي من أجل التمكين لدين الله، وما هي إلا فترة وجيزة حتى أزيل دين الملك أكبر، الذي فرضه على الرعية، وأعيد للإسلام مكانته الرفيعة.[56]

لقد تأثر الملك جهانكير بمبادئ الإمام السرهندي وأقواله، فاستبدل بالإلحاد الإيمان، وأحل الإسلام محل الزندقة، وجاهر بذلك على رؤوس الناس. لقد أظهر الملك شعائر الإسلام و أحكامه، وأعز أهله، وبكى كثيراً على سابق تفريطه.

إن الإمام السرهندي مدرسة مهمة في فقه التمكين، وله منهجية رائعة في أساليب الدعوة حققوا نتائج عظيمة للمسلمين في الهند. و الاقتراب من رجال الدولة والملوك والأمراء من أجل دعوتهم إلى الإسلام والتمكين لدينه قام به العلماء والدعاة من أمثال الإمام السرهندي وحققت نتائج طيبة في نصرة دين الله.

وجملة القول إن دعوة الإسلام في الهند كانت سائرة ببطء إلى أن ظهر الملك أكبر، فأراد أن يقضي عليها، وظل الأمر على ذلك في عصر "أكبر" وشطراً من زمن ابنه جهانكير، إلى أن نجحت دعوة الشيخ أحمد السرهندي، فعاد للإسلام مجده ورواؤه في بلاد الهند، وأصبح مسلموها في أمن على دينهم وأخلاقهم وأعراضهم.[57]

الخاتمة:

بفضل الله ومَنّهِ تم هذا المقال، و قد جرت سنة الله تعالى أنه عندما يكثر الضلال والفساد والظلام فيأتي بعده نور الهداية وكلما ازداد الكفر والنفاق والهجوم على الإسلام والمسلمين يقيض الله تعالى في الأمة الرجال الصالحين والعلماء العاملين الذين يقومون بدفع أمثال تلك الفتن والضلال، وهكذا لما ادعى جلال الدين أكبر بمساعدة أنصاره الضالين في ربوع الهند بالدين الجديد "الدين الإلهي" فإن الله تعالى وفّق الشيخ أحمد السرهندي الفاروقي أن يقف أمام هذه الضلالات حتى قام باستئصالها من جذورها، و نجح في دعوته بالصبر والمصابرة على كل أنواع الظلم من الحبس والتنكيل، حتى أعاد بجهوده الطيبة المجد للإسلام في الهند، وبذلك لُقِّبَ بالمجدد للألف الثاني... هذا وصلى الله على سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين وأن يسلكنا طريقة السلف الصالحين بعيدين عن الإفراط والتفريط في الدين الذي يسبب الشين في وجه الإسلام المتلألئ والمضي لهداية الناس أجمعين.

الهوامش

[1]التصوف الإسلامي رسالته ومبادئه ماضيه وحاضره، مشيخة عموم الطرق الصوفية، ص8 وما بعدها، مكان النشر والناشر القاهرة:دار الكتاب العربي ملخص بالتصرف.

[2]نفس المرجع، ص9.

[3]راجع رجال الفكر والدعوة في الإسلام الجزء الثالث (الإمام السرهندي حياته وأعماله) أبو الحسن علي الحسني الندوي، ص22 ط: أولى س1983م، دار القلم بيروت.

[4]المرجع السابق، ص32.

[5]وهذا قبل تدوين، "الفتاوى العالمگيرية" بزمن طويل، وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة في العالم الإسلامي، ويعرف بـ"الفتاوى الهندية" في مصر والشام والعراق.

[6]راجع رجال الفكر والدعوة في الإسلام (الإمام السرهندي حياته وأعماله) أبو الحسن على الندوي، ص36.

[7]ألف هذا الكتاب في أحمد آباد عام 1012هـ. وراجع رجال الفكر والدعوة في الإسلام، أبو الحسن علي الحسيني الندوي،ص37،36.

[8]نفس المرجع ص 37.

[9]اقرأ ترجمته الحافلة في "نزهة الخواطر" للعلامة السيد عبدالحي الحسني لكهنوي، ط دهلي وحيدر آباد. الجزء الرابع، ص:389. وراجع رجال الفكر والدعوة في الإسلام، العلامه السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي، الجزء الثالث،ص:37.

[10]نظام الرياضات الروحية والبدنية في الهند القديمة.

[11]انظر "نزهة الخواطر" ج5،ص:575. وراجع رجال الفكر والدعوة في الإسلام،العلامه السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي، الجزء الثالث،ص:40.

[12]سهنة قرية في مديرية كركانوه، في البنجاب الشرقيه، يوجد فيها عين حارة مشهورة.

[13]راجع رجال الفكر والدعوة في الإسلام، العلامه السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي، الجزء الثالث، بالتصرف، ص41.

[14]يستفاد من كتب التاريخ أنه في عهد السلطان سليم شاه (أو إسلام شاه) كان يجتمع في عاصمة كل ولاية كبار أصحاب المناصب من الأمراء والوزراء يوم الجمعة، ويوضع حذاء السلطان سليم شاه على كرسي في خيمة كبيرة، فيحنون له رؤوسهم، ويقرأ عليهم مجموعة القوانين الملكية (انظر تاريخ الهند للسيد هاشمي الفريد أبادي، ج3 ص40، وراجع النص في رجال الفكر والدعوة، ص50، و51.

[15]يصور البروفيسور خليق أحمد نظامي رئيس قسم التاريخ في جامعة عليكره الإسلامية، هذا العهد، ويشخص هذا الداء تشخيصاً صحيحاً، فيقول: "كانت أوضاع المسلمين الاجتماعية الخلقية تسير بسرعة نحو التدني والانحطاط، وإن ما جاء من القصص والروايات الغيبة في "أفسانه شاهان" و"تاريخ داؤدي" تنم عن التسفل الخلقي المشين والاضطراب العقائدي العظيم، إن حياة "الدراوشة" المترفة الناعمة، وانحراف طلبة العلم، والعقائد الخرافية، في التمائم والحجب وأساطير السعالى والجن، وروايات "مصباح سليمان" ليست علائم على مجتمع سليم، ونظام خلقي قويم، وقد كانت الحركة المهدوية – في حقيقة الأمر محاولة للقضاء على هذا الانحطاط العقلي، والتزمت الفكري، والجمود المذهبي (انظر "سلاطين دهلي كي مذهبي رجحانات – الميول الدينية لدى سلاطين دهلي ص451".

[16]راجع فقهاء هند محمد إسحاق بهاتي، ج4 ص78.

[17] ولم يكن الموقف مع الدين الإسلامي والديانة الهندوكية، في هذه المسامحة المطلقة، وحركة المصالحة التامة – متساوياً، بل رجحت – بطبيعة الحال كفة ذلك الدين أو الفريق الذي كان له نفوذ وتأثير في البلاط، وله ميل في نفس السلطان، وقد اعترف مؤلفو "مختصر تاريخ الهند" دبليو، ايج، مورلند وأي، سي جترجي: بأن أكبر نهى عن ذبح البقرة إرضاء للهنادك، وعاقب من خالف هذا الأمر عقاباً صارماً شديداً، وكانت قوانين أكبر أقرب إلى الديانة الهندوكية وأمس رحماً بها منها بالدين الإسلام، وقد نجحت هذه السياسة" (A Short History of India، 251.

[18] آئين أكبري، ج3 ص184، ط لكهنو، 1882م الهند.

[19] النهر المقدس عند الهنادك، يعبدونه ويرمون فيه رفات موتاهم، ويتقربون بالاغتسال فيه.

[20] آئين أكبري، ج1 ص33.

[21] آئين أكبري، ج1 ص107.

[22] نفس المرجع و الصفحه.

[23] آئين أكبري، ج1 ص115.

[24] المرجع السابق ص:116.

[25] نفس الكرجع و الصفحه.

[26] وهو العام السادس والعشرون من جلوس السلطان، وذكر البدايوني في حوادث عام 25 من الجلوس.

[27] لفظة "تمغة" تعني الختم، أو الوثيقة المختوم عليها، كما يقال للأرض والعقار الذي رفعت عنه الضريبة الرسمية، وتقطع لأي فرد من الأفراد جزاء على عمله الديني أو غيره مما ينفع البلارد، أو تستخدم في الأمور الخيرية.

[28] يلاحظ في "أكبر نامه" إن أبا الفضل لا يتعرض لهذا الفرمان الذي يلغي الزكاة إبقاء على سمعة أكبر وتبرئة لساحته من مثل هذه الأحكام.

[29] آئين أكبري، ج3 ص186.

[30] آئين أكبري، ج1 ص303.

[31] آئين أكبري، ج3 ص238.

[32] آئين أكبري، ج3 ص24.

[33] آئين أكبري، ج3 ص243.

[34] آئين أكبري، ج1 ص564.

[35] منتخب التواريخ، ج2 ص307.

[36] منتخب التواريخ، ج2 ص307.

[37] منتخب التواريخ، ج2 ص308.

[38] نفس المرجع، ص314، ولأجل ذلك حذف أبو الفضل في الجزء الأول من كتابه "آئين أكبري" لفظة "محمد" و"أحمد" من أسماء عدد من الأمراء فيسمى "محمد منعم"، بـ"منعم خان"، و"مرزا محمد عزيز" بمرزا عزيز" و"شهاب الدين أحمد خان" ب"شهاب خان" وهناك أمثلة عديدة لتغييره الأسماء، وحذف لفظة "محمد" أو "أحمد" منها.

[39]نفس المرجع، ص315.

[40]نفس المرجع، ص306.

[41]منتخب التواريخ، ج2 ص270.

[42]كتاب في وصف الديانات المختلفة والفرق الإسلامية في الهند، في الفارسية.

[43]نسبة إلى عمر الفاروق رضي الله عنه، فإن أحمد الإمام السرهندي من عقبه.

[44]تقديم كتاب "سيرة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد" للمؤلف العلامة السيد سليمان الندوي، ص3130.

[45]رجال الفكر والدعوة في الإسلام للندوي، ص121.

[46]و أبجد العلوم للقنوجي، ج3 ص226.

[47]زبدة المقامات ص159.

[48]تاريخ دعوت و عزيمت، سيد أبو الحن علي ندوي، ج:4 ص:154، مجلس نشريات إسلام ناظم آباد نمبر 11 كراچی.

[49]راجع فصول في التصوف الأستاذ الدكتور حسن محمود عبداللطيف الشافعي، ص193 دار البصائر مدينة الأصر القاهرة، ط1، س2008م.

[50]رجال الفكر والدعوة في الإسلام للندوي، الجزء الثالث، ص:166.

[51]يؤيد ذلك ما يقوله جهانكير نفسه في كتابه "توزك" أن خلفاء الشيخ (الإمام السرهندي) يوجدون في كل مدينة وقرية (أنظر ص272)، وكذلك كان من المصالح المتوخاة من اعتقال الشيخ "أن تهدأ ثائرة الناس" (أنظر ص273).

[52]راجع فصول في التصوف، الأستاذ الدكتور حسن محمود عبداللطيف الشافعي، ص194.

[53]كانت هذه التحية تقليدا سائدا في البلادمنذ عهد الملك أكبر، وكانت تعد من التأدب بالأدب الملوكية، وكانت على ثلاثة أصناف، أولها الكورنيش، وهو أن يضع يمينه علي جبينه و يطأطئ رأسه إلي الصدر، وثانيها التسليم، وهو أن يضع ظاهر الكف من يمناه علي الأرض ويقوم ويضع باطنه علي الرأس، وثالثها السجدة، كم يسجد في الصلاة. راجع الهند في العهد الإسلامي للعلامة السيدعبد الحي الحسني ص372.

[54]حضرات القدس ص117

[55]رجال الفكر والدعوة في سبيل الإسلام الإمام سرهند حياته ووأعماله لأبي الحسن على الندوي، ص145.

[56]يقال أن الملك رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، يعض بأصبعه في أسف ويقول: "حبست هذا الإنسان العظيم؟ يا جهانكير!".

[57]مكتوبات إمام رباني الرسالة رقم 43 المجموعة الثالثة.

[58]انظر: رجال الفكر والدعوة للندوي، ج3 ص226.

[59]استمرارية الدعوة، ج3 ص250.

[60]نظرة إجمالية في تاريخ الدعوة في الهند وباكستان، ص29.